- ٨ -

إنا فتحنا لك فتحا مبينا

مضت على هجرة رسول الله ستة أعوام فى المدينة.. تلك المدينة التى شاهدت أحداثا كثيرة.. وكانت بمثابة نقطة هائلة لانطلاق مبادئ الإسلام..

وشاهدت المدينة الجهاد الهائل الذى خاضه المؤمنون فى سبيل عقيدتهم.. ولكن قلوبهم كانت تهفو إلى بيت الله الحرام.. قبلة المسلمين ..والذى وضع القواعد منه خليل الرحمن إبراهيم.. ولكن مكة بصلفها وطغيانها منعتهم دون سائر الناس بالدخول إلى هذا الحرم الآمين..

وفرض الركن الخامس من الإسلام فى العام السادس الهجرى.. فهفت النفوس أكثر إلى البيت العتيق.. وإلى تأدية الحج والعمرة..

وذات صباح سمع الناس من النبى أنه رأى رؤيا.. وهذه الرؤيا نزلت بردا وسلاما على قلوب المؤمنين.. لقد رأى أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين.. لقد عمتهم الفرحة ..وجاشت بهم الذكريات.. فهناك فى أم القرى تذكر المهاجرون أهلهم وديارهم وذكريات عزيزة إلى نفوسهم وهفت قلوب الأنصار إلى الطواف حول البيت العتيق.

وقرر النبى ﷺ التأهب للذهاب إلى البلد الحرام فى الشهر الحرام.. أذن فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة..ودعا القبائل المجاورة أن تذهب مع المسلمين إلى الحج.. وكان بذلك يوضح للقبائل كلها ولقريش أنه ما جاء إليها محاربا.. ولكنه جاء يؤدى فريضة الحج..

أما القبائل المجاورة فقد درست الفكرة ولم تتحمس لها فقد كانت توقن أنه لابد أن يحدث صدام مسلح بين النبى وبين أهل مكة.. فأهل مكة لن يتركوا المسلمين يدخلون عليهم بلدتهم، ويرونهم مهللين مكبرين، دون أن يثير ذلك فى أعماقهم الحقد والحسد، والعداوات المتأصلة فى القلوب.. ولن تنسى مكة الدماء التى أُريقت فى حروبها مع النبى.. كما انها إذا سمحت للمسلمين بالطواف حول الكعبة فقد يؤدى ذلك إلى انضمام المستضعفين من المسلمين فى مكة إلى المسلمين، وأن تقوى بذلك شوكتهم ..وقد يساعد ذلك على أن يظهر من بين صفوف مكة من يخفى إسلامه ..ويتحمسون للنبى.. وقد يؤدى كل ذلك إلى حرب أهلية لا يعرف نهايتها أحد !..

فالخطوة إذن صعبة !

ومكة لن تسمح بهذا الحج..

ولكن النبى خرج مع أصحابه فى موكب رائع وجليل وهو يركب ناقته (القصواء).. وكان عدد من خرج معه ألف وأربعمائة.. وكان سلاحهم سلاح السيوف فقط، حتى تعرف مكة أنهم جاءوا لتعظيم البيت الحرام.. وليس فى نيتهم خوض الحرب.. وساقوا معهم من الهدى سبعين بدنة.. ووضعوا لها القلائد.. ومعهم عشرين فارسا.. وهذا المشهد يعنى انهم لا يبغون شيئا سوى الحج الذى أصبح الركن الخامس من أركان الإسلام .. فقد نزل قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وعلمت قريش بما عزم عليه المسلمون.. وانهم تحركوا بالفعل صوب البلد الحرام.. أحب بلاد الله إلى الله وأخذ قادتها يدرسون الموقف، وقرروا عدم السماح للنبى بالدخول إلى مكة مهما كان الثمن..!

هل يمكن أن يدخلها محمد عنوة !

لقد جاء النبى يؤدى فريضة الحج، ولم يدر بخلده أن يريق دما.. أو ينتهك حرمة الشهر الحرام..

ومضى النبى فى طريقه.. وعلم من أحد القادمين من مكة أن قريشاً قد استعدت للحرب، وأنها قررت أن تمنعه من دخول مكة، وقد خرج رجال منهم وعلى رأسهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل لمنع المسلمين من دخول مكة..

وقال الرسول الكريم وقد سمع ما سمع من عزيمة قومه على التصدى له هذه الكلمات المعبرة البليغة:

-« يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب.. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش.. فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»..

ومضى الركب العظيم..وشاهدوا على البعد فرسان مكة، بقيادة خالد بن الوليد فطلب النبى أن يسلك بهم أحدهم طريقا آخر حتى لا يواجه مكة وفى نفس الوقت يعلم العرب جميعا أنه ما جاء إلا قاصدا البيت الحرام، لا قاصدا الحرب.. وقادهم أحد الرجال عبر طرق وعرة متشعبة حتى وصل بالمسلمين إلى الحديبية.. (حيث بركت القصواء).. وهى نفس الناقة التى ركبها النبى عندما هاجر إلى المدينة.. وعندما كان الناس يمسكون زمامها حتى يشرفوا بضيافة الرسول، كان النبى يقول لهم:

-« اتركوا زمامها فإنها مأمورة..»..

نزل المسلمون عند الحديبية، وهى على مسيرة يوم من مكة فبينها وبين مكة حوالى (٣٠ كيلو متراً)..

. . لقد بركت القصواء عند هذه البقعة. . وتناهى إلى سمع النبى من يقول:

- « خلأت القصواء . . بمعنى أنها حرنت ورفضت المسير» . .

فقال النبى عليه الصلاة والسلام:

- ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. . والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم، وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. .

وقد عاد خالد بفرسانه إلى مكة خشية أن يكون فى نية المسلمين مهاجمة أم القرى، ثم عاد بفرسانه إلى الحديبية عندما علم أنهم وصلوا إليها، وعندما حاول بعضهم التسلل إلى معسكر المسلمين. .أسر، غير أن النبى عفا عنهم. . وهنا بدا واضحا تماما لمكة أن محمدا ما جاء محاربا، ولكنه جاء معظما لبيت الله الحرام. ولكنهم مع ذلك أصروا على منعه من دخول البلد الحرام، بحجة أن ذلك سيقلل من هيبتهم أمام العرب. . وفى نفس الوقت خشيت مكة أن يشاع بين العرب أنها منعت قوما يريدون تعظيم البيت الحرام. . والبيت الحرام كان يزوره الناس على اختلاف اعتقاداتهم . . فما بال قريش تريد أن تمنع محمدا وصحبه من الطواف حول الكعبة. .ومن هنا فكرت قريش فى طريقة تحفظ عليها ماء وجهها. . وتبدو أمام العرب أنها ما منعت محمدا إلا أنه جاء ليدخل مكة عنوة. . وبينما مكة تأخذها العزة بالإثم فكرت كثيرا أمام تصميم المسلمين على العمرة، ووجدت مكة أنه لا مفر أمامها من مفاوضة محمد بن عبد الله، فأوفدت إليه بديل بن ورقاء شيخ خزاعة للمفاوضة. . وسمع من النبى أنه ما جاء محاربا وإنما جاء لزيارة بيت الله الحرام. . ورجع الرجل إلى قريش يقنعهم أن محمدا ما جاء إلا معظما للبيت الحرام. . ولكن قريشا أسمعوه كلاما غليظا. .

وأرسلت قريش سفيرا آخر إلى النبى عليه الصلاة والسلام وهو عروة بن مسعود الثقفى.. وأخذ يفاوض النبى .. ثم اقترب من النبى وأخذ يمد يده اليمنى إلى لحية الرسول الكريم.. كأنه صديق له.. وبينما هو يفعل ذلك إذ (بالمغيرة بن شعبة) يضرب يده بكعب سيفه ليبتعد عن لحية رسول الله.. فهو ليس له ندا ولا صديقا.. وكان عروة خاله.. وكان المغيرة يغطى وجهه بالمغفر. وسأل عروة النبى عن هذا الرجل الذى يضرب يده بكعب سيفه كلما اقترب من الرسول، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام انه ابن أخيك المغيرة!

وتعجب عروة.. كيف يصنع به هكذا ابن أخيه، الذى وقف بجانبه فى مواقف كثيرة، بل ودفع عنه بعض الديات وقال له:

- أتصنع هذا بعمك يا غدر !!

وعاد عروة إلى مكة وهو منبهر بما رأى من تماسك المسلمين وحبهم لرسول الله، وتفانيهم فى طاعته.. حتى أن أقرب الناس إليه.. ابن أخيه المغيرة حال دون أن تمتد يده إلى لحية رسول الله.. بينما هو كان يقصد من وراء ذلك إلغاء المسافة بينه وبين الرسول.. كان يحاول أن يظهر صداقته وأنه يفاوضه وهو يحمل له ودا.. ولكن أين هو من محمد فى نظر أتباعه..

رجع عروة إلى قومه وقد انبهر بما رأى فقال لهم:

-« انى والله جئت كسرى فى ملكه.. وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه.. والله ما يمدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت.. وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرئ فيفعل ما يريد، وقد حرزت القوم فرأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم، فروا رأيكم، وقد عرض عليكم فأنى ناصح لكم! مع أنى خائف ألا تنصروا عليه أن أردتم له حربا»..

ولم يعجب قريش ما سمعت من عروة، فهو يخوفهم من النبى، ويبدو من كلامه ما يثير فيهم الخوف من المسلمين، فأرسلوا سيد الأحابيش (الحليس) لمفاوضة النبى.. وكان الأحابيش حلفاء لقريش.. وكان الرجل وقومه يعظمون (الهدى).. وعندما علم النبى بسفارة هذا الرجل أمر أصحابه أن يطلقوا الهدى حتى يراها سيد الأحابيش، ويعلم أن المسلمين ما جاءوا مقاتلين، ولكن جاءوا مسالمين، يريدون بيت الله.. رأى الحليس هذا، فرأى القضية واضحة لا تحتاج إلى مفاوضات.. وأن محمدا على حق، فرجع إلى قريش، وقال لأهل مكة انهم ما حالفوا مكة لتمنع الناس من زيارة بيت الله الحرام !

وخشيت قريش أن يذهب عنها حلفاؤها، فآثرت أن تفاوض النبى على ألا يكون هذا العام هو عام الزيارة، فلتؤجل للعام القادم، حتى تظهر أمام العرب أنها لم تمنع أحدا من زيارة بيت الله الحرام، وفى نفس الوقت لم ترضخ لقوة المسلمين وبينها وبين نفسها تمنت أن يبدأ النبى بالمفاوضة حتى لا تظهر هى بمظهر الضعف، أو مظهر الذى يريد السلام مع المسلمين !

وأرسل النبى عثمان بن عفان إلى مكة، فعثمان من بنى أمية، وبنى أمية من أقوى عشائر مكة، وقد دخل عثمان فى جوار (أبان بن سعيد بن العاص).. وعثمان بن عفان من أوائل الذين آمنوا.. ومن أوائل المهاجرين إلى الحبشة وقد تزوج من رقية ابنة النبى، وعندما انتقلت إلى جوار الله تزوج أختها أم كلثوم.. وسرت إشاعة أن عثمان بن عفان قتل !

وسمع النبى والمسلمون هذه الإشاعة.. إن الأمر خطير للغاية.. كيف يقتل عثمان، والرسل لا يقتلون، فقد جرى العرف بذلك، ومن الذى قتل؟ إنه عثمان بن عثمان كيف يقتل، ولم تحمه العصبية القبلية؟.. إن الأمر يبدو خطيرا، لو صح هذا فإن قريشا قد اختارت طريق الحرب.. وهنا جلس النبى تحت شجرة فى الحديبية، وقال لأصحابه:

- لا نبرح مكاننا حتى نناجز القوم !

وأسرع المسلمون إلى النبى يبايعونه على القتال.

وبايع الرسول عن عثمان..

وهنا كان هذا المشهد رائعا وجليلا.. فقد صمم المسلمون على الاستشهاد.. ومجابهة قريش بما تملك من مال وعتاد ورجال وسلاح، وهم لا يملكون سوى السيوف فى القرب !!

* * *